والعراق)، والجمهوريّةُ الإسلاميّة (بين تونس وليبيا)، واتحادُ الدول العربيّة بين مصر واليمن؟ لقد أماتها الزعماءُ من دون الرجوع إلى الشعوب التي استُفتيتْ عليها أو أيّدتها. وماذا كان مصيرُ إعلان دمشق بين دول الخليج ومصر وسوريا؟ ولماذا لم يقم تعاونٌ وثيقٌ، على الأقلّ، إنْ لم نقل وحدةٌ أو اتحادًا، بين العراق وسوريا بعد أن تولّى حزبُ البعث الحكمَ في القطرين، وقامت بينهما بدلاً من ذلك قطيعةٌ استمرّت سنواتٍ طويلة؟ أتكون أمريكا أو الاستعمار المسؤول عن هذا كلّه؟! ألا نخجل من تكرار مثل هذه العبارة، وكأننا لسنا سوى دمًى يلعب بها الآخرون؟

إنّ النتيجة التي توصّل إليها كثيرون، ولاسيّما الزعماء، هي أنّ الظروف ليست مواتيةً للعمل العربيّ الوحدويّ. وفي رأينا أنّ هذا فرارٌ من مواجهة السبب المؤثّر المؤدّي إلى الفشل، وهو الزعماءُ أنفسُهم. فقد كانوا هم أصحابَ القرار في جميع هذه الأمور، ولو ارتفعوا إلى مستوى المسؤوليّة وقرّروا والتزموا ونفّذوا، لرحّب الشعبُ العربيُّ كلُّه بذلك، ولوجدوه إلى جانبهم. كلّ مشروع عربيّ مشتركٍ تعرّض للانتكاس، وانتكس فعلاً إذا حدث ما يعكّر الأجواءَ بين الزعامات العربيّة، ثم ينشغل منهم بعد ذلك مَن ينشغل «بتنقية الأجواء العربيّة،» حتى أصبح هذا البندُ مستديمًا في جدول أعمالهم. وإذا زالت الغمامة، فإنّ ما سبق الاتفاقُ عليه يُعتبر بحكم المنتهي! ولهذا السبب توقّفتْ معظمُ المشاريع العربيّة المشتركة أو لم تنفّذْ.

وعبثًا يتعلّم الزعماءُ الدروس من تجاربهم أو تجارب غيرهم لكي يستعدّوا ويخطّطوا بالاعتماد على القوة الذاتيّة العربيّة، التي أثبتتْ فعّاليّتها عندما حُشدتْ على الوجه الصحيح في معركة العبور عام ١٩٧٣ وحربِ تمّوز عام ٢٠٠٦ وحربِ غزّة عام ٢٠٠٩. ولقد تساءل الجنرال ديغول في أعقاب نكسة ١٩٦٧، حسب رواية هيكل، «ما الذي يخيفنا ولدينا الموقعُ والامكانيّات؟». لقد بدأت الشعوبُ تتحرّك. وهذا يفسّر ما يجري من بطشٍ وانتهاكٍ لحقوق الإنسان، وتسارعٍ للتصالح مع الأعداء. ويبدو أنّ الشعب العربيّ قد تفهّم الدروسَ التي يرفض الزعماءُ تعلّمَها. وهو يتحرّك لاسترداد حقوقه وكرامته بنضاله الذاتيّ، لا بالاعتمادِ على الآخرين. لقد قال الشعبُ «كفى،» وتحرّك.

لكنْ...أين المعارضة المسؤولة؟

غير أنّ «كفى» و«كفاية» لا تكفيان. إنهما صوت احتجاجيٌّ لا بدّ منه، ولكنه يتطلّب فِعلاً يجعله واقعًا. وهذا الفعل يجب أن يأتي من معارضةٍ تتمتّع، هي الأخرى، بمفهومٍ واعٍ للمسؤوليّة، وبالتزامٍ بها. وهذا ما غاب طويلاً مع الأسف، الأمرُ الذي سمح للأوضاعِ القائمة بأن تتجذّرَ وتؤسّسَ لمصالحَ تستقوي بها. ثم إنّ المعارضة التي ظهرتْ حتى الآن، تعاني، في معظمها، الأمراضَ التي تعانيها نظمُ الحكم: من شخصنةٍ وفرديّةٍ واستئثارٍ بالموقع. وما لم تمارس الأحزابُ المسؤوليّةَ، وتلتزمْ بما تقتضيه، فستظلّ عاجزةً عن تقديم بديلٍ يستقطب الجماهيرَ التي بدأتْ في الانطلاق في أرجاء الوطن العربيّ تبحث عمّن يقودها نحو التغيير. ونرجو مخلصين ألاّ يستولي عليها مغامرون بسبب غياب الأحزاب والحركات التي تقدّر المسؤوليّةَ وتنهض بها.

لندن

تضامنًا مع حريّة التعبير

زوروا موقعنا على: http://adabmagclub.blogspot.com